من **جويلية..إلى جويلية : التقويم الثوري لذاكرة التاريخ**

الأستاذ: محمد دامو

ومضة ...

في لقاء جمعنا صدفة بميناء سيدي فرج ،حدثنا الحاج محمد الصغير، كيف أن السلطات العسكرية الفرنسية جمعت صبيحة ذات يوم صائف، أفواجا من شباب الخدمة الإجبارية الجزائريين بنفس الموضع، ثم راح الضباط الفرنسيون يتناوبون إلقاء الخطب الرنانة الطنانة، المليئة بالتبجحات الوقحة، السافرة في عنصريتها، القميئة في عن جهيتها، الحاقدة في معناها ومغزاها: من هنا دخلنا قبل مائة سنة خلت ..لازلنا ..وسنبقى.

كانت عيون لشباب الجزائريين تحتبس بمشقة تسربل دمعها العصي مما زاد الأكباد والأفئدة حرقة وألما، وقد أدركوا أن ذلك اليوم هو الخامس من جويلية 1930، المصادف للذكرى المئوية الأولى والأخيرة لحملة الغزو الهمجي الفرنسي الأوروبي على الجزائر المحروسة.

سكت الحاج محمد الصغير برهة، رفع رأسه صوب العلم الجزائري المرفرف فوق سارية برج الميناء، وقد أرسل بصره صوب البحر حتى لامس خط الأفق الفاصل بين زرقة الماء وزرقة السماء، ثم رفع يديه، بسطهما ومدهما في ثبات وهو يتمتم بخشوع وابتهال: اللهم لك الحمد والشكر على ما وهبتني من نعمة فضلك، فجعلتني أعيش أياما كيومنا هذا، نذكر فيه جويلية الانكسار في عز جويلية الانتصار

...ويواسينا فيه جويلية الاستقلال من ذلة جويلية الاحتلال .

ثم ...داعبت جفناه دمعة ماردة، وغمرت محياه فرحة عارمة.

سيدي فرج .2000

أحدثت الثورة الجزائرية انقلابا شاملا في مختلف جوانب

الحياة في داخل الوطن وفي الجوار الجغرافي القريب منه والبعيد، وامتد تأثيرها إلى أرجاء العالم، كما هي حال الثورات العظمى ذات المضامين الإنسانية السامية عبر مراحل تاريخ البشرية جمعاء على أن ما يميز الثورة الجزائرية أكثر هي تلك المسحة المعرفية بل الفلسفية التي أضفتها على سفر المصطلحات في قاموس الإعجاز التاريخي.

لقد قلبت الثورة الجزائرية رأسا على عقب المفهوم الضمني والظاهري ليوم 5 جويلية، تأريخا وشعورا إنسانيا يحتل مكان الصدارة في المخيلة الفردية والجماعية للشعب الجزائري، حيث تحول من يوم هزيمة واندحار إلى يوم مجد وانتصار، وولّى بذلك مفهومه السلبي الأليم وذهب طي النسيان ليحل ويستقر مفهومه المجيد ويرتبط إلى الأبد بذكرى استعادة الاستقلال الوطني بما يعنيه من عزة وكرامة عند مختلف شرائح الشعب الجزائري أفرادا وجماعات.

كانت أحداثا رهيبة هائجة مضطربة ومتلاحقة تلك التي صنعت تاريخ بلادنا المعاصر ورسمت منعطفاته الكبرى وأهمها انكسار 5 جويلية 1830 وانتصار 5جويلية 1962،وما بينهما، معارك وحروب وثورات، استهلكت وقتا وجهودا وكلفت أرواحا وتضحيات، فتشكلت بذلك ملحمة الشعب

الجزائر التي أعادته إلى درب سيرته الحضارية في سياق تاريخه الحافل بمآثر الخلق الإنساني المبدع.

صحح التاريخ خطأه المأساوي القاتل إذن، استعاد الوطن حريته واستقلاله، كل ذلك في 5 جويلية الذي انقلب مفهومه على صفحة تاريخنا وأعماق ذاكرتنا، مخيلة شعبنا، بفضل الثورة الجزائرية وما تفجر عنها من عبرقية فذة، وأبدعته من فكر نيّر وفلسفة رائدة، وأحدثته من انقلاب مادي ومعنوي على الصعيد الوطني، وامتداداته الإنسانية عبر العالم .

فالشعب الجزائري كشعب حي مبدع أطلق ثورته فكرا وهاجا في فضاء الحضارة الإنسانية التي شارك في بناء صرحها منذ الأزل، غير أن آلة الفتك والموت الاستعمارية الفرنسية الأوروبية رمته بحقدها السام، وأطلقت جحافلها المدججة بالسلاح وخلفها قطعان المستوطنين الهمج و حثالة البشر و المجرمين، والمغامرين والطامعين، الذين حلوا عنوة ببلادنا وراحوا يبيدون أرواح أهلها لأجل المغانم، ويدمرون معالمها لأجل السلب والنهب، ويقتلون الوعي والفكر بالتضليل والتجهيل وبالرصاص والنار والبارود أيضا .

وإذا كان يوم 5 جويلية 1830 الذي يشهد تدنيس جحافل المستعمر الفرنسي لمدينة الجزائر العاصمة المحروسة والمحمية برعاية اللّه، فإن حبائل المكيدة، جرى غزلها في دوائر الغزاة وعواصم حلفائهم الأوروبيين، قبل هذا التاريخ بكثير .

-استمرار الحملات الصليبية:

من الصعب موضوعيا تحديد تاريخ معين أو حتى فترة معينة لبداية الأطماع الأوروبية في الجزائر – المغرب الأوسط –و المغرب العربي عموما، فقد توالت محاولات الغزو والاحتلال مرات عديدة، وتداول هذه المهمة الاستعمارية قوى أوروبية مختلفة ومتصارعة أحيانا، إلى أن أسندتها أوروبا لفرنسا وساندتها لتحقيقها في القرن التاسع عشر.

فقد ذكر المؤرخ الأمريكي ول وايريل ديوارنت في معرض حديثه عن إخفاق الحملات الصليبية، أن الحملة السابعة بقيادة الملك الفرنسي لريس التاسع قد انتهت بالفشل إثر هزيمة جيشه وتبدد شمله:

"...وأسر عشرة آلاف من المسيحيين بينهم لويس نفسه، وقد خارت قواه من وطأة الزحار (1250 م). وعالجه من مرضه طبيب عربي، ثم أطلق سراحه بعد أن قضى في الأسر شهرا، يشرط أن يسلم (مدينة) دمياط (المصرية) ويفتدي نفسه بخمسمائة ألف جنيه فرنسي..."[1].

وعاد الملك القديس (Saint-Louis) إلى بلاده مدحورا ذليلا، غير أن توالي الكوارث والهزائم على حلفائه في هذه الحروب الصليبية الشائنة، أفزعت الملك الكهل:

"...وثارت حمية لويس من جديد في شيخوخته فلبس شارة

الصليب مرة أخرى (1267م). وحذا حذو أبناؤه الثلاثة، ولكن النبلاء الفرنسيين لم يوافقوا على خطته وقالوا أنها سخافة بلهاء، وأبوا أن ينضموا إليه، حتى جوانفيل نفسه رفض رفضا باتا أن يشترك في الحملة الصليبية التالية ونزل الملك - الحصيف في حكمة، الأخرق في حربه - بقواته القليلة في بلاد تونس، وكان يرجو من وراء ذلك أن يحمل أميرها على اعتناق الدين المسيحي، وان يهاجم مصر من جهة الغرب، ولكنه لم تكد تطأ قدماه أرض افريقية حتى –أصيب بنزلة معوية شديدة!ومات وهو يردد "بيت المقدس"(1270م).." [1].

وينتهي المؤرخ إلى القول :" ...وظل بعض المغامرين أو المتحمسين قرنين من الزمان يقدمون على محاولات متقطعة غير مجدية " ليواصلوا السجال العظيم " ولكن أوروبا أدركت أن الحروب الصليبية انقضى أجلها "[1].

يريد بذلك أن الحروب الصليبية قد انتهت رسميا وخبا سعارها مع نهاية حقبة العصور الوسطى بسقوط القسطنطينية في يد العثمانيين بقيادة محمد الفاتح 1453، أو كما ذهب البعض، بسوط غرناطة وتدمير آخر معاقل الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس على يد التحالف المسيحي بقيادة الملكين إيزابيلا وفرديناند (1492م) أو ربما اكتشاف أمريكا (1492م) –كريستوف كولومب – وانطلاق أوروبا في حملة استيطانية واستعمارية شرسة للعالم

الجديد و القديم على حد سواء.

والحقيقة أن هذه الأحداث كلها كانت في واقع الأمر بداية عهد جديد في الصراع المباشر بين أوروبا وبلاد المغرب العربي يعد امتدادا موضوعيا للحملات الصليبية التي شنتها أوروبا على المشرق العربي، لكن بوتيرة أكثر كثافة ووحشية من سابقتها.

وكأنما الملك الفرنسي لويس التاسع ومن خلال غزوة لسواحل شمال إفريقيا وموته كمدا ومرضا على أرضها، أراد أن يوجه أنظار أحفاده إلى هذه القارة الوديعة المسالمة وإلى شمالها العربي بالذات، لقرون طويلة وحافلة بالصراع والنفور، بين أحفاد لويس وحلفائهم الغزاة وأصحاب الأرض الآمنين الأباة والتي تواصلت سجالا تواصل حلقات التاريخ الذي لا يصعب التكهن بنهايته إن كانت له نهاية .

-حملات أوروبا ومناعة المحروسة:

منذ مغامرة القديس لويس (1270م) وحتى عهد شارل العاشر (1830)، كان الصراع الدامي بين شمال المتوسط المسيحي وجنوبه المسلم، يزداد ضراوة واتساعا في البحر كما في البر. ومع مطلع القرن السادس عشر اجتاح أوروبا الغربية سعار جارف ضد الجزائر المحروسة التي أظهر صمودها العنيد في وجه أطماع الغزاة في غربي المتوسط أنها العقبة الكأداء

والسد المنيع الذي لا بد لأوروبا الغربية أن تدمره لتفتح أمامها الطرق المؤدية إلى قلب المغرب العربي ومنه إلى بقية أمصار العالم العربي الإسلامي وحتى أعماق إفريقيا في ما وراء الصحراء الكبرى.

ولقد جرت محاولات عديدة من القوى الأوربية المهيمنة لتحقيق هذه الأمنية العزيزة على قلوب الباباوات والملوك والأمراء والمغامرات بحسب الظروف السائدة والمؤثرة في مجريات الأحداث في ممالك القارة الأوربية المتربصة أبدا بعدائية وحقد وجدا دوما تعبيرها الجلي في ما أظهرته المعارك والصدامات التي جرت بين الجزائريين والأوربيين البحرية منها والبرية، قبل التواجد التركي وبعده.

لقد أصبح واضحا أن الخطر الداهم المحدق بالمحروسة إنما مصدره شمال المتوسط، ولم يعد هناك من بدّ أن تستعد الجزائر العاصمة لصده بحزم وفاعلية غير معتادين بحيث تحبط محاولات الأعداء المتكررة لتدميرها وإخضاعها، فكان مصير الحملات البحرية المتتالية على المدينة الحصينة وشاطئها دوما الفشل، وقد تعاقبت على شنها مرارا وتكرارا، والبرتغال، اسبانيا، فرنسا، انكلترا وهولندا ،...الخ. وبلغ مجموع الحملات العسكرية البحرية التي شنتها أوروبا على الجزائر المحروسة في القرن السابع عشر، خمس عشرة حملة بينها أربع حملات فرنسية:

خلال ربع القرن:

حملة : دوق دوبوفور (Le Duc de Beaufort 1664).

حملتا: دوكان (1683-1684)Duruesne

حملة :ديتري (D'estrées 1689)

فإذا استثنينا مثل هذه الحملات العسكرية المنظمة والمكثفة على مدينة الجزائر وعلى بعض المواقع الإستراتيجية على امتداد سواحل القطر الجزائري والتي كانت تبؤ بالفشل الذريع بعد حصار أو إنزال محدود أو حتى قصف عشوائي على الأحياء المدنية، فإن البحرية الجزائرية قد فرضت نفسها في المعادلة الدولية في البحر المتوسط.

-التحالف الجزائري –التركي:

ومع بداية القرن السادس عشر وتكريس التحالف الجزائري التركي، بقيادة الأخوين عروج وخير الدين، برزت الجزائر كقوة بحرية متطورة ومسيطرة، قوية الشكيمة، رهيبة الجانب، يحسب لها الأعداء ألف حساب، قبل الإقدام على أية مغامرة حربية ضدها، خشية ضرباتها الانتقامية الموجعة التي لم تكن تتردد في تسديدها إلى نحور المعتدين لردعهم وعقابهم وتحصيل الإتاوة المفروضة عليهم، و الذين لم يكن بمقدورهم إلا الخضوع لمشيئة أولي الأمر في المحروسة وهم صاغرين.

وأمام هذا الواقع المر الذي وجدت أوروبا الغربية نفسها مرغمة على التعايش معه،بالنظر لاستحالة تغييره بالقوة العسكرية والأعمال الحربية، المكلفة في الرجال والعتاد والتي أثبتت فشلها واندحارها بالسرعة الفائقة، رأت دوائر العواصم الأوروبية أن تزيد من تكتيكاتها الحربية واستراتيجياتها العسكرية باللجوء، إضافة إلى حربها المصيرية المعلنة وغير المعلنة ضد الجزائر المحروسة إلى أسلوب الحرب الخفية التي تدور رحاها في الظلام وتتخذ من العمل السري التآمري سلاحا ومعولا لهدم أسوار وقلاع المدينة الصامدة التي عجزت عن اختراقها قذائف المدفعية الثقيلة التي كانت تصب حممها على المدينة الصامدة إطلاقا من العمارة الحربية للأساطيل المعادية والتي كثيرا ما تسبق الانزالات البحرية على لشواطئ المحاذية، وتعتبر حملة شارل كانت Charles Quintسنة 1541 نموذجا لمثل هذه الحملات الشرسة التي كانت دوما تنقلب هزيمة نكراء على أصحابها بحيث تنتهي بتبديد شملهم وكسر شوكتهم ودحرهم وهم يجرون أذيال الخزي و العار[2]، ولا يزيد المحروسة إلا مجدا وفخرا واعتزازا بدورها الرائد في الدفاع عن شواطئ جنوب غربي المتوسط والبوابة الشمالية للقارة الإفريقية باعتبارها دار المجاهد والمحروسة المحمية بعناية الله.

-تآمر وجوسسة:

بدأت حروب أوروبا السرية ضد الجزائر المحروسة، وغزو معاقلها بعشرات الجواسيس والمخبرين، مع احتدام الصراع الدامي في عرض البحر الأبيض المتوسط بين التحالف المسيحي الغربي والعالم العربي الإسلامي، والذي زادته عنفا وضراوة دعوات باباوات روما لملوك أوروبا وبارونات الإقطاعيين والمغامرين والمتعصبين للتحضير والمشاركة في حروبهم المقدسة ضد الإسلام والمسلمين، والمعروفة بالحروب الصليبية، والتي لا نرى داعيا هنا للخوض في أسبابها الحقيقية بعيدا عن الدعاوى الباطلة التي حاولت تبريرها والتي سرعان ما فضحت نفسها وفضحت أصحابها.

لكن سيمات هذه الحرب السرية ضد المحروسة، بدأت بالتشكل والظهور حسب بعض المؤرخين منذ مطلع القرن السادس عشر، بسبب تنامي دور الجزائر في المتوسط على مختلف أرجائه، ومراقبة الحركة البحرية التجارية والعسكرية الجارية بين موانئه وكذا الداخلة إليه والخارجة منه.

لقد لجأت القوى الأوروبية لهذه الحرب الخفية، بعد سلسلة الإخفاقات والهزائم التي منيت بها، إثر كل محاولاتها إخضاع الجزائر المحروسة بالقوة العسكرية المتحالفة ضدها لحصارها وتدميرها والحد من عنفوان بحارتها ورياسها،

وجبروت أسطولها القوي والسريع والمتيقظ أبدا، تلك المحاولات اليائسة لم تهدأ في واقع الأمر منذ غزوة لويس العاشر (1270م) وحتى حملة شارل العاشر (1830م)، مرورا بعشرات الهجمات والغارات التي تعرضت لها مدن وسواحل ايالة الجزائر من طرف كل القوى الأوروبية المعادية، وعبر فترات زمنية متعاقبة، باءت في مجموعها بالفشل الذريع والهزيمة النكراء، الأمر الذي دفه هذه القوى إلى تدبير نوع جديد من الحرب الضروس، أشبه ما تكون بـ(الحرب الباردة) أو الحرب النفسية التي تعتمد أساسا على بث الدعايات المغرضة والإشاعات الكاذبة من خلالا نشر الريبة و التشكيك في المؤسسات والقيادات والسياسات المنتهجة في البلاد عن طريق العملاء والجواسيس والمخبرين الذين يتم زرعهم كالفطر لسام عبر المراكز الحساسة في ربوع الوطن أو استقطابهم بشتى الوسائل المغرية وطرق الابتزاز أحيانا وشراء الذمم أحيانا أخرى، ثم تجنيدهم للتجسس على مرافق البلاد الحيوية لصالح الأداء المتربصين، وتطويعهم أيضا لتنفيذ الخطط السرية ذات الطابع العسكري أو النفسي، وكلاهما مدمر يضرب في قلب الوطن والمواطن فيدمي ويوجع ويتسبب في كوارث رهيبة تحطم همم الرجال وتفت في عضد الأبطال، وتطفئ جذوة العزيمة و الإيمان بعدالة القضية وقدسية الوطن خاصة عند ضعاف النفوس، قليلي المروءة

والشهامة وعديمي الشرف والضمير الذين باعوا أنفسهم للشياطين وكانوا بلاء وبالا على الأمة والوطن، خدما طيعين وعبيدا خانعين في خدمة الأعداء المتربصين بالشعب والوطن وعاصمته الجزائر المحروسة والمحمية بعناية اللّه، كما كانت تعرف دوما.

والتاريخ حافل بالأمثلة المؤسفة بهذا الخصوص، فهذا حاكم وهران (الرازحة تحت الاحتلال الاسباني)، يجند القايد حميدة (1563م) وأعوانه، لجمع المعلومات عن المواقع الحيوية في المحروسة التي كان شارل كانت لغزوها (1541م). بعدها وخلال ثلاثة قرون بذلت الدوار الفرنسية والأوربية كل ما أمكنها من خبث وجهد لتجنيد الرياس الجزائريين، كما حدث مع الرايس مصطفى القبطان العائد من معركة نفارين (1827م) على متن الفرقاطة (مفتاح الجهاد) في مقدمة الأسطول الجزائري المشارك في تلك المعركة، أناء توقفه في ميناء الإسكندرية حيث كلف الجنرال غيليرمون Guillermontنفسه عملاء العاملين في مصر مثل هودر Huderوليسيبس Lesspsوريمبر Raimbert، بالعمل على تجنيده مهما كان الثمن ، في الوقت الذي كانت فيه الجيوش الفرنسية تجري الاستعدادات الأخيرة ، لبداية حملتها الاستعمارية ضد الجزائر المحروسة [3].

-جيوش الخفاء تغزو المحروسة :

منذ أن أبرم الملك الفرنسي فرا نسوا الأول اتفاق أو معاهدة التجارة والصداقة مع نظيره السلطان العثماني سنة (1535م)، سعت السلطات الفرنسية عبر الباب العالي للحصول على موافقة الجزائر على تعيين قنصل فرنسي مقيم فيها، فكان لها ذلك وتم لأول مرة تعيين بيرتول Berthollet قنصلا في المحروسة، واستمر القناصل الفرنسيون بالتوافد على البلاد حتى بلغ عدد الذين استلموا هذا المنصب لغاية (1829م) أكثر من ستين قنصلا، رغم فتات قطع العلاقات بين البلدين خلال الأزمات الحادة التي كانت تمر بها أحيانا.

بذلك يكون التمثيل الدبلوماسي الفرنسي بالجزائر، متميزا عما كانت عليه الحال مع بقية دول أوروبا خاصة تلك المطلة على البحر، كإسبانيا، إنكلترا، السويد، هولندا، الولايات المتحدة الأمريكية، البندقية، مالطا، سردينيا...وغيرها، على أن تمثيل هذه الدول ظل دوما دون التمثيل الفرنسي أهمية نظرا لاعتبارات عدة تتعلق بالجغرافيا و التحالفات مع الباب العالي وانعكاسات الصراعات الأوروبية –أروبية وفي حوض البحر الأبيض المتوسط.

ولعل الميزة المشتركة بين كل هذه الممثليات القنصلية في المحروسة، هي تكلفها التام بتجنيد الخونة، إيواء الجواسيس واحتضان المارقين بهدف جمع المعلومات الأمنية

والسرية عن المرافق الحيوية في الجمهورية الفتية، وتحويلها إلى الدوائر المختصة في بلدانها،للاستفادة منها عند الضرورة التي لم تكن غائبة أبدا إن كان في الأعمال العسكرية أو في حبك المؤامرات وإثارة الاضطرابات لضرب الايالة من الداخل بزعزعة استقرارها وتدمير أسس أمنها ونظامها الجمهوري الفتي و المحاط بالأعداء و متربصي الدوائر الذين اقتنعوا بعدم جدوى حملاتهم العسكرية المتلاحقة على مدن وموانئ البلاد فراحوا يجربون حظهم بمثل هذه الحرب الباردة ،وقطعان جنود الخفاء من رهبان و مبشرين ومغامرين وأسرى سابقين وبحارة وتجارة متجولين ،إلى غاية ذلك ممن تم تجنيدهم في خدمة مثل هذه الأعمال الدنيئة.

وكانت أبرز أهداف التجسس الأوروبي على البلاد، وفي المقام الأول هو المؤسسة العسكرية وذراعها الضاربة: البحرية الجزائرية، عن إعدادا قطعها، مواقع انتشارها،قواعدها الرئيسية، خطوط إبحارها المبرمجة وما يطرأ عليها من تغييرات، كيفية تموينها، وخاصة عدتها وعتادها الحرب ونوعية تسليحها وتسليح البحار وإعدادهم..ثم القوات البرية، ومراكز تجمعها، ثكناتها الرئيسية، تسليحها، إعدادها، تموينها كيفية تدريبها، احتياطاتها، درجة انضباطها، وحتى الشرائح المكونة لعناصر صفوفها،و الأساليب المتبعة للتجنيد

والخدمة العسكرية بشكل عام .هـ[3].

وأخيرا وليس آخرا وضع الخرائط الطبوغرافية، التي تتحدد عليها المناطق الإستراتيجية في البلاد، والمركز الدفاعية، المواقع الاقتصادية والحيوية، بما في ذلك الحقول والبساتين الزراعية ومخازن والسلع والأسواق ...بالإضافة إلى التضاريس الجغرافية من سهول وجبال وأودية وغابات أيضا، وحتى الروابي والخلجان و الشواطئ من حيث طبيعة وتكوين ضفافها و الرياح التي تهب عليها و القرى و المداشر القريبة منها...

باختصار كانت كل معلومة مهما صغرت ومن أية طبيعة كانت، تشكل هدفا مطلوبا لقطعان الجواسيس الذين دفعت بهم دوائر القوى الأوروبية بمختلف الطرق إلى مختلف أنحاء الايالة و خاصة الجزائر المحروسة، حيث مؤسسة الحكم ومقر إقامة رؤوس الدولة، ومركز القيادات العسكرية و المدنية و الدينية،ومنارة العلم و التعليم و الفتوى و القضاء الأعليين واهم مركز مالي وتجاري، باعتبارها عاصمة الدولة وأحد أهم المركز العمرانية النشيطة على الضفة الجنوبية لحوض البحر الأبيض المتوسط،و العدو العنيد لأوروبا، المتصدي لمطامعها،و المحبط لخططها الاستعمارية التوسعية، والمنافس القوي على بسط النفوذ العسكري في حوض المتوسط،و الخصم المرهوب الجانب

الذي أثبت أنه لا يقهر أبدا في البر كما في طول وعرض البحر الأبيض المتوسط.

-التصدي ومكافحة الجوسسة :

أمام هذه الهجمة الشرسة والحرب الدنيئة التي شنت وتشنها الدوائر الأوروبية، ضد الايالة ومصالحها الحيوية والإستراتيجية، كان لزاما عليها اتخاذ الإجراءات الصارمة لمواجهة آثارها، وتفادي مخاطرها، ولجم انتشارها واستفحالها.

فسنت لذلك قوانين خاصة نصت على عقوبات قاسية بمستوى فظاعة الجريمة المرتكبة في حق الوطن و الأمة، و التي لم يكن يتردد في تطبيقها الحاكم مهما كان شأن المتهم الذي تثبت عليه تهمة ارتكاب جريمة الخيانة، بحيث يخضع للاستجواب والتحقيق ويسلط عليه التعذيب الشديد، إلى أن يقر بكل ما لديه من معلومات وأسرار، ليحال بعدها إلى الجلاد ليضرب عنقه أمام الملأ في الساحة العامة، وكان القناصل المشبوهون يتعرضون للطرد مع الاحتجاج الشديد اللهجة لدى دولهم كما جرى العرف والعادة، لكن في حالات خاصة قد يتعرضون للإعدام دون تردد، كما حصل مثلا مع القنصل الفرنسي الكاهن لوفاشي Le Vacher سنة 1683م، الذي ثبت انه كان يتخابر مع أسطول معادي، مستخدما نشر

غسيله بترتيب معين وقطع ملابس ذات لون مميز ...كلها إشارات محددة، تعطي العدو معلومات سرية، وتساعده في توجيه مدفعيته وتحديد أهداف قصفه...وبعد إدانته تم ربط القنصل الجاسوس إلى فوهة مدفع وإطلاق النار.

وعموما كانت السلطات في الجزائر المحروسة تواظب على ليقظة و الانتباه حيال كل حركة مشبوهة من طرف الأجانب خصوصا و المشبوهين عموما وتراقب تحركاتهم واتصالاتهم ومختلف نشاطاتهم ليلا نهارا إلى أن تثبت عليهم التهمة وينكشف أمرهم، أو تثبت براءتهم ويخلى سبيلهم.

تتحدث يوميات الجزائر المحروسة كذا في مدن الايالة الأخرى عن العديد من الأحداث المتعلقة بالتآمر والجوسسة و التي تم كشفها وإحباطها والقبض على المكلفين بتنفيذها وأعوانهم، وتنفيذ حكم الإعدام في حقهم غالبا، أو الزج بهم في غياهب السجون ورفض كل محاولة لمبادلتهم بالأسرى الجزائريين في قبضة العدو، أو قبول ما يعرض فيهم من فدية حتى لو كانت من قبل عظماء ملوك عصرهم، كما حدث مع الجاسوس الاسباني كانيت الذي كلف بمهمة التسلل ليلا إلى الميناء مع جماعة من الجواسيس، وإضرام النار في البواخر الراسية على رصيفه التي تمكن من الوصول إليها، وقبل أ يصل إلى هدفه ألقى عليه القبض واقتيد إلى السجن، وقد عرض الملك الاسباني شارل كانت مبالغ ضخمة على

الباشا حسن بن خير الدين (1550م)، الذي احتقر العرض ورفضه، فيما أحيل الجاسوس على التحقيق ثم المحاكمة التي أدنته وأعدم (1559م).

وإجمالا، لم يحدث في تاريخ الايالة، أن استفاد جاسوس أو خائن واحد م العفو أو الشفاعة أو حتى تخفيف العقوبة أبدا هـ[3].

بهذه الصرامة والشدة في تطبيق القوانين والعقوبات الرادعة في حق الجواسيس والخونة استطاعت الجزائر المحروسة أن تتفادى المؤامرات والكوارث التي كانت تحيكها لها الدوائر المختصة بالتخريب والتشويش والتجسس والتآمر، التابعة لأجهزة الدول الأوربية المعادية، ويعود الفضل في إحباط تلك الدسائس إلى يقظة جهاز الشرطة الجزائرية ورياس البحر ووعي الأهالي، وانتباه السلطة العليا لخطورة الأمر، واتخذها الاحتياطات اللازمة لمواجهتها من خلال تقوية جهاز الرقابة والمتابعة، وتدعيم نقاط الرصد ومجموعات التحقيق والملاحقة، مما فوت الفرصة على القوى الأوروبية الحاقدة مرة ثانية، وافشل خطط حربها الباردة ضد الايالة، التي راهنت عليها كثيرا بعدما منيت خططها الحربية الساخنة برا وبحرا، مما أتاح للمحروسة الاستمرار في تأدية دورها الإسلامي الرائد في قلب الشمال الإفريقي، وفي عرض حوض

البحر الأبيض المتوسط، رغم غيض العدى، الذين رأوا آمالهم في أن يقتلعوا المحروسة من خارطة العالم تتبخر، وتتبعثر في مهب الريح.

وبقيت الجزائر المحروسة، شامخة تتربع في موقع الصدارة كقوة بحرية مهيمنة في حوض المتوسط، بمواجهة الأمم المتصارعة واللاهثة خلف موقع تحتله في هذا البحر الاستراتيجي العظيم.

-الاستعداد لغزو معلن:

تكشف المصادر الفرنسية، دون قصد في كثير منها،عن بعض الدوافع و الأسباب الحقيقية لتدبير حملتها العدوانية ضد الجزائر المحروسة، وإطلاق مخططها الهمجي في غزو البلاد ، وإعلان حرب إبادة حاقدة ضد الشعب الجزائر الأمن، دون أدن مراعاة لأخلاقيات الحرب و تقاليدها وقوانينها المرعية وقتذاك، بل دون احترام يذكر للاتفاقيات والعاهدات الدولية التي كانت تربطها مع حليفاتها الأوروبيات من جهة ومع الباب العالي وكذا الدولة الجزائرية نفسها.

ومن بين هذه الدوافع: استعادة مكانة الدولة الفرنسية في القارة الأوروبية خاصة بعد هزائمها المتكررة وآخرها هزيمة واترلو Waterloo(1815م)، فشلها في امتلاك مستعمرات في القارة الأمريكية وشبه القارة الهندية والاحتفاظ بها، عجزها عن تسديد ديونها الخارجية بما فيها تلك التي تطالبها بها

الجزائر نفسها، هذا فضلا عن رغبة فرنسا الجامحة لفتح الطريق إلى أعماق إفريقيا، انطلاقا من شمالها، الأمر الذي لا يمكنها تحقيقه دون السيطرة على قلبه –المغرب الأوسط –انطلاقا م غزو واحتلال عاصمته الجزائر المحروسة،و الظهور فوق ذلك بمظهر المدافع الغيور على مصالح العالم المسيحي ،وحماية حقوق ومصالح الرعايا الأوروبيين، ونشاطهم في حوض البحر الأبيض المتوسط، الذي تهدده الأخطار من طرف القوات البحرية الجزائرية الضاربة ،التي يقف بالمرصاد لكل التحركات المشبوهة للسفن الأجنبية والروبية خاصة، حيث كانت تلاحقها وتصطادها في عرض البحر وتسبحها عنوة إلى ميناء المحروسة أو غيره على الشواطئ الجزائرية وتصادر حولتها، لأسباب تتعلق بقوانين الملاحة والتجارة والحرب والسلم المرعية في ذلك الوقت، وأحيانا كانت السلطة الجزائرية تفرج عن السفن الأسيرة، وتطلق سراح الأسرى الأجانب المخالفين، بتدخل من العمل الدبلوماسي أو بتأثير روابط الصداقة والعلاقات المميزة بين السلطة الجزائرية والداي شخصيا و الشخصيات والدول الصديقة والحليفة، كما كانت عليه حال فرنسا في اغلب الأحيان حتى مطلع سنة (1827م).[4]

ففي هذه السنة شكلت الدوائر الفرنسية هيئة عليا مكلفة

بالتحضير السياسي والعسكري لغزو الجزائر واحتلال عاصمتها المحروسة،والتي راحت تعمل بجد ونشاط لتحقيق هذه الغاية، وكانت أركان هذه الهيئة الأساسية مشكلة من الملك شار العاشر ووزير الخارجية الأمير دوبولنياك ووزير الحربية وقائد الحملة سنة (1830 م)الجنرال دوبورمون.

وفيما تكفل الملك بمهمة التنسيق وتهيئة الأجواء الداخلية لتقبل المخطط ودعمه من طرف الهيئات السياسية والمؤسسات الاقتصادية والتجارية، اهتم (♦) Prince de Polignac بتهمة الرأي العام الأوروبي لنفس الغرض تمهيدا لطلب دعم ومساندة دول أوروبا من جهة وتفادي معارة بريطانيا خصم ومنافسة فرنسا التقليدية،أو على الأقل ضمان حيادها، بعد أن أظهرت لندن تحفظا شديدا إزاء المغامرة الفرنسية التوسعية، التي لا بد وأنها تستهدف قطع الطريق البحري البريطاني الرابط بينها وبين مراكز تواجدها في جبل طارق، مالطا، ومصر لاحقا.

وقد نجحت فرنسا في المسعى وأعلن الملك أخيرا " أن فرنسا التي تعرضت للشتم، ليست بحاجة لمساعدة أحد لكي تنتقم...أما الإنكليز فنحن لا نتدخل في شؤونهم، وعليهم ألا يتدخلوا في شؤوننا! وكل ما أستطيع فعله لإنكلترا هو أنني لم أستمع لما سمعته كثيرا !"[5].

أشارة إلى " حادثة المروحة «المزعومة، ورفض الإنكليز لمثل

هذا المبرر الفرنسي السخيف لحملتهم العسكرية الضخمة، والتي يصعب على التاج البريطاني قبولها.

أما الجنرال دوبورمون De Bourmont فقد كرس كل جهوده لإعداد الخطط الحبية ودراستها، ومراجعة التقارير السرية المتعلقة بالجزائر، وأخيرا تنظيم جمع القوات وإعدادها وتجهيز خطوط الإبحار والتموين وجمع الأسلحة والذخائر ومختلف المواد الحربية، استعداد لإطلاق الحملة العدوانية على المحروسة،واسطة المراكب الجاهزة في مرفأ طولون جنوب فرنسا المطل على البحر الأبيض المتوسط.

في 18أفريل 1830، وبعد أسبوع فقط من صدور المرسوم الملكي بتعيينه قائدا عاما على رأس (جيش حملة إفريقيا)، قدم دوبورمون إلى شارل العاشر، التقرير الذي أعدته الدوائر الاستعمارية الفرنسية، بعد شهرين من الدرس والتمحيص بخصوص كيفية تنفيذ حملة الغزو ومستلزماتها، وقد تضمن التقرير الذي فاق حجمه 164 صفحة أدق التفاصيل الخاصة بخطط حملة الغزو واحتلال الجزائر وضواحيها، بما في ذلك الخرائط السرية وموقع الإنزال البحري وخطوط سير العمليات الحربية، بحيث لم يبق لانطلاق الحملة سوي الموافقة الملكية [6].

وحسب التقرير فإن الحملة ستكلف خمسة وعشرين مليون

فرنك موزعة بشكل خاص على قطاعات العتاد: حوالي ستة ملايين، التجهيز: ستة ملايين، لتموين: أربعة ملايين، المستلزمات اليومية للأفراد: تسعة ملايين، بالإضافة إلى أموال خاصة، قدرها التقرير بحوالي مليون فرنك بقي مصدرها ومجال صرفها سريين ربما لاعتبارات سياسية معينة.

وقد تضمن التقرير جردا مفصلا للذخائر والأدوات الحربية والأسلحة والتجهيزات بما في ذلك المواشي والأنعام من خيول وبغال وحمير لحمل وجر المدافع والعتاد بعد لإنزال فضلا عن الأبقار والخنازير والأغنام إضافة إلى المواد التموينية الأخرى (◆◆).

-بداية الحملة المغامرة :

غداة يوم 25 ماي 1830 طلائع جيش الغزو الاستعماري من ميناء طولون باتجاه سواحل الجزائر على متن حوالي مائة عمارة حربية من بوارج ومدمرات وحراقات وطرادات و غيرها، مزودة بأنواع المدافع التي فاق مجموعها الألف مدفع، وكانت تحمل أكثر من خمس وعشرين ألف جندي محترف من نخبة القوات الخاصة المدربين على مختلف فنون القتل والنهب والتدمير.

تلت هذه القافلة مباشرة أكثر من 350 قطعة بحرية محملة بالجنود والذخيرة والعتاد والتموين والمستلزمات الضرورية

والأساسية للإنزال والقتال، بالإضافة إلى إعداد من السفن الحربية غير الفرنسية التي ساهمت بها دول أروبية دعما للمجهود الحربي الفرنسي المباشر جاءت من نابولي، النمسا، روسيا...وغيرها، بالإضافة إلى هذا الأسطول الضخم الذي غادر دفعة واحدة ميناء طولون في نفس يوم 25 ماي، كانت قطع بحرية أوروبية أخرى تحاول أحكام حصارها على ميناء الجزائر بتنسيق تام فيما بينها بحيث شكلت أسطولا واحدا متحدا، يعمل على تشديد الخناق على ميناء المحروسة، إثارة بعض الفوضى والبلبلة داخل المدينة وبين أهلها من خلال تكثيف القصف على أحيائها وساحاتها ليلا ونهارا (♦♦♦).

وفيما راحت المدفعية الجزائرية المنصوبة على الأبراج والقلاع والأسوار المواجهة للبحر تتعامل مع مدفعية الوحدات البحرية الأوربية المهاجمة وتتبادل معها القصف و القنص، كانت القيادة العسكرية والمدنية في المحروسة برئاسة الداي حسين تتدارس الموقف وتحاول وضع الخطط الكفيلة برد العدوان، وتقوية الوحدات القتالية المرابطة ناحية سطاوالي بمواجهة سيدي فرج في انتظار وصول طلائع الغزاة، حيث يتبين أن الجزائريين كانوا على علم مسبق بأهم أسرار الخطط الفرنسية والتي ليس أقلها موقع الإنزال والتجمع والحشد قبل التحرك باتجاه المدينة والهجوم عليها من الخلف، أومن حيث

لم تكن تتوقع.

كانت اجتماعات الداي حسين مع أعضاء الديوان ومع القيادات العسكرية متواصلة، بهدف أحاكم لمواجهة و التحضير للمعركة بشكل يضمن النصر على تحالف الأعداء الأوروبيين، وإنقاذ المحروسة من المكيدة التي خططها الأعداء و يعملون على تنفيذها، وقد وجد الداي أنه من مصلحة البلاد إجراء بعض التغيرات في المواقع والمسؤوليات على مستوى القيادة العسكرية، وحث البايات في وهران وقسنطينة والتيطري على الإسراع بإيصال النجدة و الدعم ونقل وحداتهم العسكرية إلى العاصمة، وتنظيم عمليات التموين والتجهيز، وضع خطة متكاملة لإدارة الأزمة وإحباط العدوان[7].

-المحروسة في خطر:

وتذكر السجلات التاريخية أن نوعا من الفوضى وتضارب الآراء والتقديرات قد برزت أحيانا بين الهيئات القيادية الجزائرية إن كان عل مستوى الديوان أو الحكومة المركزية أو مجلس الأعيان وحتى قيادة الجيش بعد استبدال قائده يحي أغا بصهر الداي حسين إبراهيم أغا، "..بعد حادثة البروفانس المشؤومة "[8] على حد تعبير الكاتب والمثقف الجزائري حمدان خوجة، الذي يضيف أنه :" لو كان يحي ، أثناء هذه الحرب الأخيرة (الغزو)، على رأس الجيوش

الجزائرية، لكان سير الأمور أحسن ..."،لأنه كان يرى أن الآغا إبراهيم "...لم يكن قائدا ممتازا في يوم من الأيام، ولم يكن يعرف لشيء الكثير من التكتيك العسكري ..."[9].

والعلامة الجزائري حمدان خوجة ، كتب بقلم ينزف دما عن المؤامرة التي كانت تجري فصولها سريعا والمأساة التي وقعت على رأس الأمة، والتي كان يعزوها إلى سوء التدبير واللامبالاة والاستهانة بقوة العدو،وعدم الكفاءة والحزم عند بعض القيادات العليا، وقد ترك لنا الكثير من التفاصيل حول هذه اللحظات الحاسمة في تاريخنا، ضمنها كتابه الشهير (المرآة).

يبدو أن مجلس الحرب الذي ترأسه الأغا إبراهيم وحضره الحاج احمد باي قسنطينة وبومزراق باي التيطري وخليفة باي وهران الذي لم يتمكن من الحضور شخصيا بسبب المرض، لم يتوصل إلى رسم إستراتيجية متكاملة لصد الغزو، بالرغم من أن المعلومات والخطط المتعلقة بالحملة الفرنسية قد وصلت إلى أيدي السلطات الجزائرية عبر عيونها السرية، بكامل تفاصيلها .هـ[7].

لعل أوضح مثل عن سؤ التدبير والإهمال هو عدم إقامة تحصينات دفاعية ، وخنادق ،ومواقع مدفعية على طول سواحل سيدي فرج، والاكتفاء بحشد القوات بموقع

سطاوالي على الطريق المؤدي إلى المحروسة ،وكأن القيادة العسكرية الجزائرية أرادت بذلك أن يتم الإنزال الفرنسي لتقوم بعدها بتطويقه وإبادته، والتخلص نهائيا من الخطر العسكري الفرنسي والتهديد به، وليكن ذلك درسا ومثلا لبقية القوت الاستعمارية الأوروبية .هـ[4].

الخطة في حد ذاتها تنم عن عبقرية عسكرية فذة، بإمكانها لو نجحت أن تغير مجرى التاريخ، لكن فشلها كما يبدو يعود إلى ما سبق أن ذكرناه من إهمال وسؤ تسيير، بحيث لم تطبق هذه الخطة بالدقة المطلوبة و التي ربما لم تدرس بما فيه الكفاية من طرف مجلس الحرب، فكان أن نجح العدو في إنزال قواته وانتقلت المعركة إلى الخط الرئيسي في الدفاع عن العاصمة على هضبة سطا والي، الأمر الذي أحدث ارباكا بين أركان الجيش، كانت له نتائج وخيمة، فيما راح الغزاة الذين اتخذوا من رأس سيدي فرج موطئ قدم، يتوسعون ميدانيا، ويقيمون الخنادق والتحصينات الواقية لمدفعيتهم، ويستعدون لتطوير هجماتهم بعد استكمال إنزالهم البحري ،وتنظيم صفوف هم ومخازنهم مؤنهم ومختلف التحضيرات العسكرية التي نسبق عادة تطوير الخطة الحربية الدفاعية إلى خطة هجومية مدروسة ومنظمة.

الإنزال القاتل:

صبيحة الثالث عشر من جوان 1830 كانت طلائع أسطول

الغزو الفرنسي على مرأى من السواحل الجزائرية وراحت وحداته تتجمع قبالة شاطئ سيدي فرج، وقد قضت طواقم الإعداد للإنزال طيلة الليل في تحضير القوارب وشحنها بالمعدات والمدافع والمؤن وعلى الساعة الرابعة صباح يوم الرابع عشر من جوان، انطق بها أكثر من تسعة ألاف جندي نظامي صوب الساحل وما أن نزلوا منها وأفرغوا حمولتها على الشاطئ حتى أعيد سحبها نحو البواخر بواسطة الحبال ليعاد شحنها من جديد، بحيث عند تمام الساعة الخامسة كانت فرقة عسكرية بكامل عدتها قد تمركزت فوق أرض شبه الجزيرة، بعدها بساعة واحدة أي السادسة صباحا كانت الفرقة الثانية لجيش الغزو قد لحقت بسابقتها، بعد ذلك بنصف ساعة نزل قائد الغزاة نفسه إلى الشاطئ وتمترس بمقر قيادته المعد سلفا من قبل فريق الهندسة العسكرية.هـ [4].

منذ ظهور أولى سفن أطول الغزو قرب الشواطئ كانت المدفعية الجزائرية تتعامل مع وحداته رغم قلة عددها ورغم كثافة القصف المدفعي الفرنسي. وبحلول منتصف النهار كان العدو قد أتم إنزاله، فيما تصاعدت المقاومة الجزائرية بالمدفعية والفرسان، وامتلأت ساحة القتال بين سطاوالي وسيدي فرح بمئات القتلى والجرحى من الطرفين دون أن تحسم المعركة لهذا الطرف أو ذاك.

الأيام الخمس الأولى التي تلت الإنزال شهدت معارك طاحنة على طول الجبهة المواجهة لسيدي فرج وأيضا قبالة ميناء الجزائر حيث راحت مدفعية السواحل تتعامل مع المدمرات المعادية الفرنسية والأوروبية الحليفة التي كانت تقصف بكثافة أحياء العاصمة لإثارة الرعب والبلبلة بين المدنيين، وكذا الثكنات والقصور والمواقع العسكرية والمقرات الحكومية، على نه كان واضحا أن المعارك البرية الدائرة جنوب غرب المحروس هي في النهاية التي ستقرر نتيجة هذه الحرب العدوانية الطاحنة .

كانت الحرب الباردة فد بلغت مداها هي الأخرى من خلال بث إشاعة تعرض الداي حسين لمحاولة اغتيال فاشلة، - تم كشفها قبل وقوعها - وأن مجموعة من الضباط المتآمرين قد تم إعدامهم، ويبدو أن أصداء هذه الإشاعة وغيرها من الإشاعات المحبطة قد انتشر بين صفوف القوات الرابضة على الجبهة وفي موقع سطاوالي المتقدم والمحصن في مواجهة محاولة زحف العدو وإجباره على التقهقر، واستنزاف قواه تدريجيا بفعل تكثيف الهجمات واشتدادها على مواقع تمركزه في شبه جزيرة سيدي فرج وبفعل مرور الزمن الذي لم يكن لصالح العدو، بل كان يعمل ضده بوضوح تام، الأمر الذي لم يغب عن بال الغزاة أبدا، فجاء انتشار الإشاعات تلك كمعجزة منقذة خففت الوطء على العدو لما

أحدثته من تململ واسيا ، في صفوف الجيش الجزائري، قيادة وأفرادا[10].

معركة الحسم في سطاولي:

تتحدث المصادر الفرنسية في معرض سردها لأعداد حشود الجيش الجزائري بقيادة الأغا إبراهيم عن ستين ألف جندي، بمعداتهم وبطاريات مدفعيتهم وكامل تجهيزاتهم وتموينهم .هـ[4].

ولا تغفل هذه المصادر ذاتها أدق التفصيلات بهذا الشأن، فتذكر أن باي التيطري وباي قسنطينة قد احضرا معهما ما مجموعة ثلاثين ألف جندي، وهذا رقم خيالي ابعد ما يكون عن الواقع، ذلك أن الحاج أحمد باي، حضر من قسنطينة حاملا الدنوش، ولذلك لم يصطحب معه سوى أربعمائة فارس ، كما ذكر في مذكراته وكما أوضح في مجلس الحرب الذي ترأسه الأغا إبراهيم غداة الغزو .

أما باي التيطري الذي وعد في المجلس ذاته بتوفير عشرين ألف مقاتل فارس ،عجز في الواقع عن جمع أكثر من ألف فارس، كما لم يحدث أن كان للكراغلة فرقة عسكرية، فضلا عن أن يتحول خمسة آلاف فارس منها إلى جبهة القتال، حسب ادعاءات تلك المصادر نفسها .هـ[7].

مهما كان أمر فقد بات واضحا لدى بورمون وضباطه أن

كسب معركة سطاوالي هو السبيل الوحيد لتفادي الإبادة المحققة لجحافلهم المتخندقة في سيدي فرج، مما دفعه لان يصدر أمر الهجوم الشامل على المواقع صبيحة التاسع عشر من جوان، وبدأت بذلك معركة طاحنة تميزت السرعة و المناورة و الوحشية والكر والفر وتبادل المواقع، والتمويه والخدع، والتلاحم المباشر بالسلاح الأبيض، بل حتى باستخدام الأسنان والأظافر عند الحاجة، وعندما يعلو دخان البارود همم الرؤوس، ويحمي وطيس المعركة فتأكل حممها الأخضر واليابس، بحيث لا تبقي ولا تذر.

وقد حاول أحمد باي عزل المهاجمين عن قاعدتهم الخلفية في سيدي فرج وتطويق فلولهم، في ما عمل بومزراق على جرهم نحو الغرب لتخفيفي لضغط عن محور الجزائر سطاوالي،وتشتيت جموعهم، لكن انضباط أفراد لعدو وانصياعهم التام لتعليمات قياداتهم حالت دون نجاح الخطتين، واستمر تركيز العدو على موقع سطاوالي إلى أن تمكن من إحداث ثغرات في دفاعاته، واستغل هذا النجاح في تطوير هجومه نحو مرتفعات سيدي خلف بحيث وخلال بضعة أيام أصبح يشرف على التلال المطلة على العاصمة، حيث تمكن من نصب مدفعيته التي راحت تصب حممها على المدينة المنكوبة بالتساوق مع مدفعية البحرية الراسية قبالتها ...وفجأة وجدت المحروسة نفسها بين نارين من الأمام ومن

الخلف مدفعية البحرية أمامها ومدفعية الميدان خلفها، ولم يبق أمامها حيلة أو مفر [11].

بذلك تكون التكنولوجيا الحديثة وقتذاك في صناعة الأسلحة والسفن البخارية، و المعدات المتطورة لسلاح الهندسة والنقل والاتصال كذلك، قد تغلبت على الشجاعة والاستبسال والتضحية ولشهادة وكل مظاهر البطولة التي أبداها جنود وفرسان الجزائر دفاعا عن المحروسة وبالتالي عن كل الايالة، من أدناها إلى أقصاها.

على أن الأمور لم تكن بالسهولة التي توقعها الغزاة، فقد اضطر قائدهم بورمون لان ينتظر وصول فرقة إمدادات كاملة ونزولها في سيدي فرج ثم انتقالها إلى جبهة المعركة في مواجهة القوات الجزائرية التي كانت تحت إمرة مصطفى بومزراق، وقد استخلفه الداي قائدا للجيش بدل الأغا إبراهيم وفي أول اشتباك بين الطرفين خسر العدو 250 فردا من أفراد فرقته الداعمة، واستمر القتال و القصف المتبادل، وكانت الغزاة يتقدمون ببطء ومقابل خسائر باهظة، لكنهم في النهاية كانوا يشددون الخناق على المدينة الصامدة، التي تلقت نبأ احتلال قلعة الإمبراطور باستياء وبيأس شديدي الوطأة على نفوس الجيش والسكان الذين لم يعد أمامهم سوى الاستعداد لخوض حرب شوارع، الأمر الذي لم يرق

لأولياء الأمور بطبيعة الحال،إذ كان توجه الأعيان و الشخصيات الفاعلة يميل إلى التفاوض مع العدو حول شروط وقف إطلاق النار،فكان لهم ذلك بموافقة الداي نفسه الذي قد يكون رأى مصلحته الخاصة وكذا مصلحة القوة الضاغطة و النافذة تمكن في التفاوض، ونبذ فكرة المقاومة خلف أسوار المدينة وبين شوارعها وفوق أسطح دورها ، ثم ماذا عساها تفعل مقاومة الأهالي في مدينة واقعة بين فكي كماشة العدو الذي راح يحاصرها برا وبحرا مدافعه الحديثة الصنع الثقيلة الأعيرة .هـ[11].

-شروط وقف القتال:

في لساعة الثانية ظهرا وصل مبعوث الداي سيدي مصطفى قادري إضافة إلى وفد من الأعيان يمثلهم سيدي بوضربة والحاج حسان و غيرهما إلى قلعة الإمبراطور، التي احتلها الغزاة صباح نفس اليوم الرابع من جويلية، لمقابلة دوبرمون و البحث في شروط وقف القتال، وبعد تنقلات مكوكية قام بها الوفد المفاوض بين الداي و دوبرمون تمكن في الأخير من نقل شروط قائد الغزاة مكتوبة إلى الداي الذي لم يعترض على أي منها مبدئيا ، فكل ما فعله، هو طلب تأخير طلائع جيش الاحتلال إلى المدينة في استعراض احتفالي، مدة ساعتين فقط، أي أن يتم في لساعة الثانية عشر منن ظهر الخامس من جويلية بدلا من الساعة العاشرة حسب رغبة

بورمون وإرادته، الذي وافق على طلب الداي شريطة أن توقف مدفعية القصبة قصفها فورا وأن يتم إطلاق سراح بحارة السفن التي أغرقت منذ بداية الغزو في نفس الوقت، فكان له ما أراد ودخل بذلك وقف القتال حيز التنفيذ.

عدا المطالب السياسية والعسكرية للغزاة والمتمثلة بشكل أخص في تسليم حصون وقلاع المدينة وبيت المال والميناء والقصور و الحصون والثكنات...إلخ،فقد تضمن الاتفاق المذكور على وعود سخية قدمها بورمون دون حساب ولا تردد ليس اقلها حماية الممتلكات الخاصة والعامة، حماية حرية ممارسة الشعائر والاحتفالات الدينية ودور العبادة والأماكن المقدسة، وعدم التعرض بسوء للعائلات و النساء والأطفال، وكذا تجارة وصناعة وأملاك السكان، وأولهم الداي وأعوانه وعائلاتهم ...إلخ،وهي شبيهة بوعود كل الغزاة عبر التاريخ، التي لم يحدث أن احترامها أصحابها، أو سمحوا حتى بإعادة ذكرها أمامهم، متى ما تمكنوا من مقدرات البلاد وأحكموا قبضتهم على رقاب أهلها، الأمر الذي لم يشذ عنه دوبورمون وأفراد جحافل الغازية بطبيعة الحال.

في تمام الساعة الثانية عشر من يوم 5 جويلية 1830،اجتازت أولى طلائع قوات الاحتلال الفرنسية باب عزون، مستبيحة بذلك حرمة دار الجهاد الجزائر المحروسة،وسارت على طول

الشارع الموصل إلى باب الواد، قبل أن تتوزع على لثكنات و القلاع البحرية والمواقع العسكرية التي أخلاها حرس الداي حسين والقوات المدافعة عن المدينة المنكوبة، جرى كل ذلك أمام أعين الأهالي المفجعين بهول الكارثة وهم يتجرعون بغصة وألم مرارة و المهانة التي أصابت كبرياءهم وعزة أنفسهم وصادرت حريتهم العزيزة على قلب كل واحد منهم التي ورثوها ابنا عن أب قرون خلت رغم المكائد و تكالب الأعداء على بلادهم والمصائب التي كانت دوما تتحطم على صخرة المحروسة وبطولة أبنائها المجاهدين.

-تكالب وسلب ونهب:

لم ينتظر العدو المحتل طويلا في مواقعه الجديدة داخل أسوار المدينة المجروحة، لينظم حملات شرسة على أحياء القصبة ومؤسسات الدولة ومرافقها الرسمية والمدنية الخاصة والعامة وقد استباحها جنوده المتعطشون للدماء و الثروة اللاهثون خلف الكنوز الموعودة الذين راحوا ينتهكون الحرمات ويدنسون المقدسات، كما هي حال قطعان الهمج عبر التاريخ، وبما يعيد إلى الأذهان وحشية المغول وقد استباحوا بغداد مدينة السلام التي سجلها التاريخ بنبرة الأسى و الألم، فكانت مثلا لما تؤول إليه حال مراكز الحضارة والعمران عندما يجوز عليها الزمن وتتغلب عليها قطعان المتوحشين والبرابرة الهمج.

في نفس الوقت كان ضباط جيش الاحتلال الذين تسلموا مفاتيح بيت مال المحروسة، يتقاسمون الغنيمة الثمينة فيما بينهم ويهربون ما انتهبوه سرا وعلانية، بعد أن تورطوا جميعهم بمن فيهم الملك وزيره الأول، في تزوير الحسابات و تغطية عميلة النهب و لاختلاس، حيث مازال ما ارتكبته الجهات الرسمية الفرنسية من فضائح بهذا الخصوص،والتي أصبحت تعرف بعملية (سرقة كنوز الجزائر)، لم تنته فصولا بعد، دون أن يجري بشأنها أي تحقيق جدي، لكشف فظائعها، وبقيت حتى يومنا هذا سرا مفضوحا (!).

كما انطلقت عملية الانتقام الحاقد ضد دور العبادة فدمرت آلات جيش الاحتلال المساجد ، وحولت بعضها إلى كنائس، وتوسعت عملية التدمير لتشمل الدور و القصور و المرافق العمومية لإخفاء آثار السلب والنهب وأشعلت فيها النيران، أو تمت مصادرتها بكل بساطة مع كل ما احتوته من ممتلكات ونفائس، كالمتاجر و المخازن و المصانع و المستودعات.

قصارى القول أن الجزائر المحروسة قد تحولت من 5 جويلية 1830، إلى مدينة محتلة، مستباحة، مهانة، مدمرة تتأكلها نيران الحرائق ونيران الغدر الصليبي الحاقد.

-توسيع عملية الغزو:

وفيما استغل الغزاة عامل الصدمة والإحباط النفسي الذي أصاب الجزائريين في أعماقهم بفعل هول الكارثة التي أصابت كبرياءهم جراء الاحتلال المفاجئ لعاصمة بلادهم، حيث تسارعت قيادة جيش الغزو لتوسيع رقعة الاحتلال، على طول السواحل الجزائرية، والسيطرة على المدن والموانئ والمراكز العمرانية والتجارية، حتى شملت هيمنتها أهم المدن من وهران غربا وحتى عنابة شرقا، بما في ذلك المرسى الكبير وبجاية، في ظرف زمني قصير كان خلاله الجزائريون يعملون على تجاوز آثار المحنة ويعضون على جراحهم، لوقف النزف وتنظيم الصفوف والاستعداد لوقف زحف العدو ومنع توغله جنوبا، ونشر الوعي بين أفراد الشعب وتجنيده لمقاومة المحتل وإعلان الجهاد المقدس، والانتقال للهجوم على تجمعاته العسكرية، بما يعني كل ذلك من تغييرات في حياة الأفراد و الجماعات في مختلف أرجاء الوطن والتي تفرض على الحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، لما يخدم قضية الجهاد ومقتضياته إلى حين طرد العدو عن كل شبر يحتله في بلاد الجزائر التي دخلت عهدا جديدا يملك زمام إدارة الأمور فيه، أبناء الوطن الأحرار وحدهم، عليهم فقط و على عبقريتهم يتوقف مصير الوطن ومستقبله، فقد غدا تاريخ 5 جويلية ذكرى مشينة، لا مفر من الانتفاض لغسل ما خلفته من آثار مهينة لطخت شرف الأمة وشوهت

تاريخ مسيرتها الحضارية، ودنست أرض الوطن، وصارت حريته وكرامته.

وإنه لاستعادة ما فقدته الأمة في غفلة من الزمن، لابد أن يستعد أبناؤها لخوض معارك طاحنة في حرب ضروس تعتمد على التخطيط والتنظيم ورص الصفوف وبذل التضحيات، ضد عدو همجي شرس لا سبيل لصده ودحره وطرده إلا بالحديد والنار في ميدان الشرف والقتال الذي سيشمل من الآن وصاعدا كل شبر من أرض الوطن الشاسع .

-انطلاق الجهاد...فجر المقاومة:

وهكذا وبهذه الروح الجهادية، بدأ الجزائريون في تنظيم أنفسهم، ففي غرب البلاد التي كانت تتبع بايلك وهران بايعوا الأمير عبد القادر بن محي الدين أميرا عليهم وذلك يوم 27 نوفمبر 1832 ، وكان شابا في الرابعة والعشرين من عمره مليئا بالحيوية والنشاط، مثقفا شاعرا، وفارسا شجاعا، ومؤمنا متحمسا لقضية أمته ووطنه، فتحمل راضيا عبء المسؤولية وانطلق في سباق مرير مع الزمن لبناء الهياكل والمؤسسات الاجتماعية والعسكرية التي تفرضها ظروف الاحتلال ومقاومته، وراح يجند المجاهدين ويدربهم ويسلحه استعدادا لمقاومة العدو الغازي، وتكن في وقت قصير للغاية من تنظيم جيشه والزج به في معارك مشهودة أوجعت العدو

وكسرت شوكته ووضعت حدا لتبجحات قادته الذين كثيرا ما ولوا الأدبار وذاقت جحافلهم مرارة الهزيمة وتجرعت علقم الانكسار، وبدأت تحسب ألف حساب لأمير الشاب وجيشه المغوار.

أما في الشرق الجزائري فقد تزعم المقاومة المسلحة ضد الغزاة الحاج احمد باي قسنطينة الذي سبق له أن حارب العدو في معارك الدفاع عن الجزائر المحروسة، قبل احتلالها ثم انتقاله إلى عاصمة بايلكه لتنظيم دفاعاته إدراكا منه أن مطامع الغزاة لن تتوقف عند حد، ولن تكتفي باحتلال الشريط الساحلي بل ستعمل على توسيع غزوها جنوبا وأن معركة قسنطينة آتية لا ريب، فعمل على رص صفوف مواطنيه الذين تجندوا للمعركة ورد الغزاة، وبقي يقاوم حملاتهم على مدينة قسنطينة لأكثر من سبع سنوات ولم يتمكنوا من اقتحام أسوارها إلا على أشلاء وجثث أبنائها الذين قاوموا الغزو حتى آخر قطرة من دمائهم.

واستمر الحاج احمد في صد محاولات توغل العدو جنوبا، فتنقل من موقع إلى آخر لمدة تزيد عن عشر سنوات على احتلال قسنطينة، بذل خلالها كل جهده في الجهاد والكفاح ورأب الصدع في صفوف أبناء الشعب الواحد المتماسك في مواجهة الزحف الهمجي المنظم على المدائن والقرى في جنوب شرق الوطن، إلى أن خانته قواه مع ثقل السنين واشتد عليه

خناق العدو المحتل فاضطر إلى القبول بشروط وقف القتال (1848م) وتم نقله إلى الجزائر ليقضي بقية عمره تحت نير الاحتلال(1850م).

- الأمير عبد القادر رمز المقاومة:

وكان الأمير عبد القادر وخلال فترة قصيرة قد تمكن من وضع اللبنات الأساسية لدولة جزائرية عصرية، تقوم على مؤسسات وهياكل منظمة بشكل يوائم حالة الحرب الشرسة التي كان يواجهها على رأس جيشه الفتي من حيث التكوين والتدريب و التسليح، والقوي الصلب بعزيمة رجاله وحكمه قادته وبطولة أفراده.

وتمكن الأمير الشجاع من انتزاع اعتراف العدو قبل الصديق بدولته الفتية، بعد أن نجح في قيادة جيشه في معارك مصيرية حاسمة وتحقيق النصر المؤزر في معظمها، رغم ما كان يتمتع بع العدو من تفوق تكنولوجي و لوجيستي وعددي، لكن الأمير عرف كيف يجير معرفته لتضاريس الأرض لمصلحته و يكسب ثقة وتأييد الأهالي في مختلف أرجاء الوطن ويواجه المحن والانكسارات العسكرية التي تصيبه أحيانا بما في ذلك احتلال عاصمته ومقر إدارته في مدينة معسكر، فمن منطلق إيمانه القاطع أن الحرب سجال،وان القائد الناجح هو الذي يعرف كيف يدخل المعركة وينتصر كما يعرف كيف

يتحاشى الصدام وينسحب.

وإلى جانب معاركه الحربية، خاض الأمير عبد القادر معارك لا تقل أهمية على الجبهة الدبلوماسية، و السياسية، فكانت له اتصالات مع القوى الصديقة ودول الجوار التمس من ورائها الدعم والمؤازرة، فكان ينجح حينا ويخيب أمله أحيانا، دون أن يتزعزع إيمانه الراسخ بحتمية النصر لقضيته العادلة في مقاومة جحافل الغزاة.

وقد اضطر العدو في أحيان كثيرة لمفاوضته وإبرام اتفاقيات هدنة معه، كاتفاقية دوميشال (1834م)، واتفاقية وادي التافنة (1837م)، وغيرهما، والتي كان الأمير يرى في عقدها فرصا سانحة تتيح له بعض الوقت لإعادة تنظيم صفوف جيشه وأحوال دولته، وشؤون أبناء وطنه وإعداد العدة للجولات والمعارك القادمة طالما بقي جزء من الوطن مهما صغرت مساحته يرزح تحت نير المستعمر المحتل.

وقد ظل الأمير يصول ويجول بين كر وفر، يجاهد في سبيل تحرير الوطن من رجس المستعمر، إلى أن ضاقت به الحال وانقطعت به السبل وخانته الحيلة مع اشتداد الضغط والحصار من الداخل كما من الخارج ولم تجديده الممدودة لطلب الدعم والعون من الأصدقاء والجيران استجابة تذكر، رغم تحذيراته من أن النار التي تلتهم وطنه ستمتد لا محالة إلى خارجه دون أن توفر المتخاذلين والمترددين في دعمه

ومؤازرته في رد جحافل الغزاة التي لن تكتفي في نهاية المطاف باحتلال أرض الجزائر، بل ستمتد أطماعها إلى خارجها بما تحمله من خراب ودمار.

لكن فعل النكران والخذلان، الملاحقة والحصار، وضروب الإبادة والتقتيل، كل هذا قد جعل الأمير عبد القادر يعيد النظر في إستراتيجية عمله النضالي وكفاحه الذي تواصل على مدى سبعة عشر عاما، ليقرر بعدها القبول بمقترحات السلطات الفرنسية، بوقف القتال ضمن شروط معينة رأى فيها فرصة لتجنيب شعبه المزيد من المعاناة والتشريد والتقتيل، ووضع حد لحرب الأرض المحروقة التي شنها العدو على البلاد وأهلها، ووقع الاتفاقية وشروطها في 27ديسمبر 1847 مع الدوق دومال Duc d'Aumale القائد العام للقوات الفرنسية .هـ[4].

على أن السلطات الفرنسية كعادتها لم تف بوعودها، كما لم تحترم شروط وقف القتال التي تعهدت بها ووقعت عليها، فعاملت الأمير معاملة الأسرى ونقلته إلى سجن خاص في مقاطعة أوريان الفرنسية، لتقرر في الأخير نفيه إلى المشرق العربي (1852م) بناء على طلبه حيث كانت مواقف وأعمال تتسم بالبطولة و الشهامة، لازالت بلاد الشام وأهلها يذكونها له ممزوجة بمشاعر الاحترام و التبجيل.

-ثوار وثورات متتالية:

ويشهد التاريخ أن عبقرية الشعب الجزائري كانت دوما وأبدا تتوصل إلى ابتكار الأساليب المناسبة لمناهضة القوى الاستعمارية الوافدة على البلاد، وقد تمكنت من تحويل حياة المستعمرين على الدوام إلى جحيم مريع في السهول والجبال، بالساحل والصحراء في المشرق الغرب، حيثما حل العدو و ارتحل. فكانت الانتفاضات وحركات العصيان والثورات لا تهدأ أبدا وكلما خمدت إحداها انفجرت أخرى في غير جهة من الوطن و لغير سبب من الأسباب المباشرة و غير المباشرة .

وكان الجزائريون يستعيدون بحرقة وألم الإهانة التي تعرت لها عاصمة بلادهم الجزائر المحروسة غداة الخامس من جويلية، فتثور ثائرتهم، وينتخبون قائدا ينظم صفوفهم قبل أن يعلنوها ثورة مشتعلة ضد العدو المحتل، فمن ثورة الشيخ بوزيان وسكان واحة الزعاطشة سنة 1849، وثورة لشريف بوبغلة في منطقة جبال البابور سنة 1851، وقبلها ثورة الحاج عمر و لالا فاطمة نسومر سنة 1843 في منطقة جبال جرجرة وجوارها، وثورة أولاد سيدي الشيخ التي امتدت بين سنتي 1864و1881، والتي واكبتا ثورة الحاج محمد المقراني والشيخ الحداد في الهضاب العليا سنة 1871، وتلتها ثورة الشيخ بوعمامة في غرب البلاد من سنة 1881 وحتى سنة 1908، فضلا عن ثورة جبال الاوراس سنة 1879بزعامة الشيخ محمد امزيان

بن عبد الرحمان، وحركة محمد بوخنتاش في المسيلة ومنطقة بسكرة ،وبني مناصر في مليانة وشرشال ...وغيرها من الحركات الثورية الناقمة على التواجد الاستعماري البغيض،الرافضة لنكبة 5جويلية 1830 السيئة الذكر في أذهان وأفئدة كل أبناء الوطن الجريح، و التي كانت تهدف مجموعها إلى محو آثار ذلك اليوم المشؤوم، من ذاكرة التاريخ، بما تركه من تشويه على صفحاته الناصعة ،وأحداثه في النفوس من حرقة وألم وحسرة على أمجاد الأمة الضائعة وكرامتها وحريتها السليبتين[12].

-استراتيجيات والهدف واحد :

بعد احتلال عاصمتهم قضى الجزائريون ثلاثة أرباع القرن في مقارعة جحافل الغزاة، وملاحقة فلولهم دون هوادة ولا كلل، على أنهم ومع مطلع القرن العشرين، خففوا من أعمال الصدام والمجابهة ذات الصبغة العسكرية، لإتاحة الفرصة أمام العمل السياسي السلمي الذي بشرت به فلسفات هذا القرن وإيديولوجياته الإنسانية التحريرية علهم ذلك يحقنون الدماء ويتفادون دمار الحرب وأهوالها، طالما أمكنهم التوصل إلى نيل حقوقهم المصادرة واستعادة حريتهم واستقلال بلدهم بالعمل السياسي المحض والطرق السلمية العلنية، وراحوا يشكلون الجمعيات الوطنية والأحزاب السياسية حسب

لقوانين الفرنسية المفروضة وضمن هامش حرية العمل السياسي المتاح.

وهكذا أعلنت طليعة من المناضلين الجزائريين عن قيام (نجم شمال إفريقيا) بين أوساط العمال المغتربين في ديار المهجر، بعد الحرب العالمية الأولى التي سقط فيها آلاف القتلى من الجزائريين الذين فرضت عليهم السلطات الاستعمارية التجنيد الإجباري في صفوف جيشها المهزوم في أوروبا، و الذي دفعوا حياتهم دفاعا عن حرية فرنسا التي كافأتهم بالجحود و النكران.

فنقول عملهم السياسي داخل الوطن من خلال حزب الشعب الجزائري (P.P.A) بزعامة مصالي الحاج الذي، تعرض بدوره إلى المضايقة وملاحقة أعضائه من طرف سلطات الاحتلال، ثم إلى الحل ومنعه نهائيا من العمل والنشاط السياسي، فظهر مجددا بعد الحرب العالمية الثانية التي دافع خلالها الجزائريون ثانية عن فرنسا المهانة والمنهزمة في إطار التجنيد الإجباري، وتم الإعلان عن إنشاء حزب الحركة لأجل انتصار الحريات الديمقراطية (M.T.L.D)[13].

-بذور الثورة الكبرى:

ولعل أهم إنجازات هذا الحزب هو المنظمة السرية وهي المنظمة الخاصة (O.S) الشبه عسكرية التي أنشأها بهدف التحضير للثورة المسلحة، فكانت بمثابة اللبنة الأساسية في

العمل الجاد لانطلاقة الثورة التحريرية الذي تولته مجموعة من طلائع المناضلين الثوريين الذين بادروا إلى أنشاء اللجنة الثورية للوحدة و العمل (C.R.U.A) ، ردا على حل السلطات الفرنسية للحركة من اجل انتصار الحريات الديمقراطية وزج المناضلين الجزائريين بالجملة في غياهب السجون والمعتقلات.

وقد ضمت اللجنة الثورية للوحدة والعمل السرية، العناصر النشيطة من أعضاء المنظمة الخاصة التي تمكنت من الإفلات من قبضة العدو، بالإضافة إلى المناضلين الثوريين الذين رفضوا الأساليب التقليدية في العمل الحزبي المداهن للسلطات الاستعمارية ونبذوا التناحر الحزبي على الساحة الوطنية، وعقدوا العزم على تفجيرها ثورة شعبية مسلحة في وجه الإدارة الاستعمارية ورمز الاحتلال العسكري البغيض ،ليس احتجاجا على تزوير الانتخابات الصورية والتجاوزات البوليسية وأساليب القمع والاعتقال بمحاكمة أو بدونها، بل طلبا وسعيا وإصرارا على استعادة حرية واستقلال الجزائر، ومحو آثار الإهانة التي لحقت بالوطن منذ احتلال عاصمته المحروسة غداة 5 جويلية 1830 الذي بقي خنجرا بين أضلاع طل فرد من أبناء الشعب الجزائري الغيور على كرامة وطنه ،المؤمن بحتمية انتصاره، وقد حان الحين للعمل الجاد على تصحيح الخطأ التاريخي المشين الذي حل في حق الوطن

الجزائري الجريح.

وقد جاءت مجازر 8 ماي 1945 لتؤكد للمناضلين ولكافة أفراد الشعب الجزائري أن لا أمل يرتجى من السلطات الاستعمارية الفرنسية في أن تخفف الوطء ولو قليلا عن خناق الشعب الجزائري الذي ضحى أبناؤه بأرواحهم دفاعا عن المثل الإنسانية والديمقراطية، وحرية الأمم والشعوب قاطبة وأولها حرية وكرامة فرنسا وشعبها فكان جزاؤهم مجازر وحشية ارتكبها جيش فرنسا الحرة ضد أهلهم وإخوتهم في وضح النهار غداة الثامن من ماي 1945، وكل ذنبهم أنهم رفعوا العلم الجزائري في غمرة فرحتهم بهزيمة النازية ودول المحور، انتصار الحلفاء و بقية شعوب العالم المحبة لمبادئ الحرية والعدل و السلام.هـ (13).

-ثورة نوفمبر الخالدة:

وهكذا وفي الفاتح من نوفمبر 1954 أعلن مجموعة من المناضلين المجاهدين الأحرار ثورة التحرير الوطني ضد المستعمر الفرنسي بقيادة جبهة التحرير الوطني وذراعها الضاربة جيش التحرير الوطني، وأصدروا بيانهم الأول المتضمن أهداف الثورة ووسائلها وأسلوبها، وكأنهم يرسمون المسار الصحيح المؤدي إلى 5جويلية آخر يمحو آثار 5 جويلية 1830، وما ألحقه من غبن وهوان على سيمات الجزائريين جيلا بعد جيل، وقد حان الأوان لتصحيح مسار التاريخ ورده

إلى سواء السبيل والذي حاد عنه طيلة قرن وربع قرن من الزمن.

وقد تمكن الجزائريون من تحقيق هدفهم بطرد جيش الاحتلال وقطعان المستعمرين من البلاد في خامس جويلية جديد سنة 1962، وانتزاع حريتهم واستقلال بلادهم تحت لواء جبهة التحرير الوطني ودرعها الواقي ورأس حربتها جيش التحرير الوطني، وذلك بعد سبع سنوات ونصف السنة من الجهاد والنضال في حرب ضروس ضد قوات الاحتلال و حلفائها الأطلسيين نبعد أن دفع الشعب الجزائري ثمنا لذلك مليون ونصف مليون شهيد من خيرة أبنائه المجاهدين الأبرار، وتضحيات جسيمة لا تقدر بثمن قدمها الشعب الجزائري بسخاء بالغ وحقق بذلك المعجزة الكبرى التي جعلها مفخرة للأجيال القادمة، بحيث أصبحت الجزائر تتخذ من 5 جويلية عيدا وطنيا ورمزا للاستقلال والحرية، ومحت إلى الأبد ما كان يمثله هذا اليوم من ذكرى مشؤومة لما جلبته من انكسار ومهانة أحنت همم الرجال لما يزيد عن قرن وربع القرن، وجعلت من الجزائريين عبيدا في وطنهم.

وإذا كنا اليوم نحتفل في كل سنة بعيد الاستقلال في الخامس من جويلية ، فيجب ألا ننسى ما أصاب مخيلة أجدادنا وآبائنا من معاناة وتشويش وارباك مست منهم

الذاكرة و الوجدان طيلة قرت وربع ، إلى أن خلعت عن هيئتها أسمال الحزن و الألم ،لترتدي في عصر استعادة الاستقلال ، ثوب العز و الفرح.

لقد طرد جويلية الأفراح جويلية الأتراح، وحل جويلية الأمل مكان جويلية اليأس، وانطلقت بلادنا المستقلة بعد جويلية 1962 في مسابقة مع الزمن لتتجاوز مأساة جويلية 1830، وتستعيد موقعها الرائد بين الأمم، وتساهم بقسطها الوافر في بناء الصرح الحضاري الإنساني، كما كان حالها دوما عبر الحقب المتعاقبة لتاريخها الناصع. أما شهداؤنا فلهم المد و الخلود في جنة الرضوان.

الهوامش

1 - ول ديورانت :قصة الحضارة –عصر الإيمان –الجزء الرابع من المجلد الرابع صفحة 54وما بعدها.

2 - حملة شارل كانت Charles Quintعلى الجزائر 1505، والتي تحولت إلى هزيمة نكراء على جيشه، وبقيت ذكراها كابوسا يؤرق نومه حتى انقطاع أنفاسه

3-Moulay Belhamissi: Alger, l'Europe et la guerre secrète 1518-1831p.60.et suit.

(أنظر الإحالة 8): هذا الكتاب له أهمية خاصة من حيث يمكننا من معرفة الأسباب الكامنة خلف ما تميزت به دوائر الحكم في أيام الدايات من غموض و سرية، وما كان يصدر عنها من أحكام جنائية قاسية، بل وحشية أحيانا.

4- Gustave Gautherot : la conquête d'Alger 1830, p:19.

تعود أهمية هذا الكتاب الذي ينضح محتواه حقدا وعنصرية ،والذي اعتمدناه

دون تردد لذات السبب إلى أن واضعيه وناشريه سنة 1929 بمناسبة الذكرى المئوية لاحتلال الجزائر، قد كشفوا في طغيان نشوة المناسبة، ما درجوا على ستره ونكرانه في ما بعد وحتى يومنا الحاضر ...خاصة وأن الكتاب نشر بدعم من الجهات الرسمية الفرنسية وقدم له لوي بيرتران Louis Bertrand عضو الأكاديمية الفرنسية ...

(❖) -دوبولينياك، تسلم وزارة الحربية الفرنسية بالوكالة ،وذلك إثر دوبورمون قائدا عاما للحملة الاستعمارية على الجزائر (جيش إفريقيا)، حسب المرسوم الملكي الصادر بتاريخ 11أفريل 1830.

5 - نفس المصدر السابق صفحة La Conquête d'Alger.31

مقطع من كلمة الملك شارل العاشر في المجلس الملكي المنعقد يوم 21 مارس 1830.

6- La Conquête d'Alger 53 مصدر سبق ذكره.

(❖❖) - وجدنا بعض المقتطفات من هذا التقرير الذي كتبه دو بورمون وقدمه للملك و الذي يحتوي على 164صفحة ،دون عليها كاتبه العديد من الحقائق التي سبقت الحملة، واقتنعت الملك ومجلسه الحربي بإقرارها، لكننا لم نتوصل إلى نسخة من نصه الكامل .

حبذا لو تمكنت هيئة أو باحث من تحصيل نسخة عن هذا القرار وترجمتها إلى العربية بالنظر لأهميتها القصوى كوثيقة ذات علاقة مباشرة بكتابة تاريخنا الوطني .

(❖❖❖)للإطلاع أكثر على طبيعة التحالف الأوروبي ضد الجزائر والدور الفرنسي العدواني المبيت، انظر مقررات مؤتمري فيينا (1815)،وإيكس لا شابيل 1818 ، اللذين ضما القوى الأوروبية الكبرى، بهدف التحالف والتعاون لفرض الإدارة الأوروبية على البحر الأبيض المتوسط وتقاسم النفوذ في مناطق معينة من العالم وأوروبا ...

7 -المرآة : حمدان بن عثمان خوجة، الإحالة (1).

8 - "البروفانس"هو اسم سفينة حربية فرنسية، حملت إلى الجزائر وفدا مفاوضا برئاسة دولابروتونيار، يوم 30 جويلية 1829، وعند انتهاء مهمتها ومغادرتها الميناء، مالت عن خط سيرها، للاقتراب من القلاع والحصون الواقعة في المنطقة المحرمة الخاصة بدفاعات الجزائر، لأسباب لا يمكن تجاهلها، فأطلقت عليها الحامية العسكرية الجزائرية نيرانا تحذيرية أبعدتها عن الموقع ،وهي الحادثة التي

كثيرا ما اتخذت منها السلطات الفرنسية ذريعة لتبرير غزوها للجزائر سنة 1830، إلى جانب الذريعة الأخرى الشهيرة بحادثة المروحة ،أنظر المرآة ، الهامش (5)،ص183 ، ولتفاصيل أكثر انظر الفصل الأول من : La Conquête d'Alger(الاحالة 7)

9 - انظر حمدان بن عثمان خوجة صك188 -189 الإحالة 1.

10 -منشورات تفننت أجهزة الدعاية الفرنسية غداة الغزو وأثناءه في نشرها وتوزيعها في الجزائر وضواحيها بهدف زرع الفوضى و التشكيك و البلبلة، كما حملت تحريضا قبيحا ضد (الأتراك)ومن أسمتهم باانكشاريين والميليشيا (التكرية)، وانتهت إلى أن مهمة الجيش الفرنسي إنما هي طرد هؤلاء (الأجانب) تحرير العرب من نير استعمارهم وتسلطهم ’انظر الإحالة (10).

11 -La Conquête d'Alger ص.85،(الإحالة 7).

12 -أنظر (الإحالة 10)

Charles André Julien :Histoire de l’Algérie contemporaine ,Tome I

انظر كذلك الدكتور يحيى بوعزيز، ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين (الإحالة 2).

13 -أنظر :

Yves Courriere ,La guerre de l’Algérie.

Les fils de la Toussaint .(الإحالة 9)

الإحالات

1 - حمدان بن عثمان خوجة :المرآة :تقديم وتعريب وتحقيق ،د.محمد العربي الزبيري .الشركة الوطنية للنشر و التوزيع.الجزائر1975.

2 - الدكتور يحيى بوعزيز : ثورات الجزائر في القرنين التاسع عشر و العشرين. الجزئينIوIIمنشورات المتحف الوطني للمجاهد ،الطبعة الثانية .الجزائر 1996.

3 - دكتور جمال قنان: العلاقات الفرنسية الجزائرية (1790-1830)منشورات متحف المجاهد الجزائر 1990؟

4 - سيمون بفايفر : مذكرات جزائرية عشية الاحتلال .ترجمة وتقديم وتعليق:الدكتور أبو العيد دودو، طبع دار هومة –الجزائر 1998.

5 - ولديورانت:قصة الحضارة -عصر الإيمان –المجلد15 -16.

ترجمة : محمد بدران : الجزء الرباع من المجلد الرابع. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم – تونس، دار الجليل –بيروت 1988.

6-Charles Robert Ageron, Histoire de l'Algérie contemporaine. Tome II,Presse, Universitaire de France –Paris 1979.

7-Gustave Gautherot : La Conquête d'Alger, 1830.
D'après les papiers inédits du Maréchal De Bourmont, Commandant en chef de l'expédition Payot, Paris ,1929.

8-Moulay Belhamissi :Alger, L'Europe et la Guerre secrète 1518-1830. Editions Dahlab –Alger1999.

9-Yves Courriére : La Guerre de l'Algérie I, Les fils de la Toussaint Editions Fayard Paris 1966.

10- Charles-André Julien : Histoire de l'Algérie Contemporaine. Tome I, La conquêt et les Débuts de la Colonisation1827-1871.(P.U.F) Presse Universitaire de France ,1979.